بحث لغوى

كلمة « قرآن »

بقلم محمد طه الحاجرى

للقراء فى أداء كلمة قرآن طريقان : تحقيق الهمزة فيها ، وإبدالها منها ؛ فبعضهم يقرؤها « القران » وبعضهم « القرآن » والقراءة غير المهموزة تنسب إلى إسماعيل بن عبد الله بن قسطنطين[1] قارئ أهل مكة فى زمانه ، وآخر أصحاب ابن كثير زمانا ، كما يقول عنه الذهبى فى كتابه «طبقات القراء المشهورين» وقد روى عن أبى عبد الله الشافعى قوله فى هذا الصدد ، قال : « قرأت على إسماعيل وكان يقول القرآن اسم وليس بمهموز ، ولو كان من قرأت كان كل ما قرئ قرآنا ، ولكنه اسم للقرآن مثل التوراة والانجيل ، تهمز قرأت ولا تهمز القرآن » وكذلك روى صاحب اللسان مثل هذه الرواية ، وزاد عليها تزكية لها وإعلاء لسندها النسب الذى يصل قراءة اسماعيل بالقراءة الأولى على رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال : « قال اسماعيل قرأت على شبل ، وأخبر شبل أنه قرأ على عبد الله بن كثير ، وأخبر عبد الله أنه قرأ على مجاهد ، وأخبر مجاهد أنه قرأ على ابن عباس رضى الله عنهما ، وأخبر ابن عباس أنه قرأ على أبىّ ، وقرأ أبىّ على النبى صلى الله عليه وسلم » ، وبعد أن أورد ابن منظور هذا القول روى عن أبى بكر بن مجاهد أنه قال : « كان أبو عمرو بن العلاء لا يهمز القرآن ، وكان يقرؤه كما روى عن ابن كثير » فهذه إذن قراءة معتبرة لا شك فى صحتها وقوة سندها

ولكن عبارة القسط ينظر إليها من ناحيتين : ناحية الرواية وناحية الدراية أو التعليل ، أما الأولى فلا كلام لنا فيها ، وأما الناحية الثانية فقد نازعه فيها كثير من العلماء الذين أورد الفخر الرازى أقوالهم ، فقد قال الزجاج عن قول اسماعيل هذا إنه سهو والصحيح أن ترك الهمزة من باب التخفيف ، ونقل حركة الهمزة إلى الساكن قبلها ، فكأنه يرى أنها مشتقة من مادة قرأ ، وأنها تساوى كلمة قرآن المهموزة ، إلا ما كان من هذا التخفيف الذى تجيزه اللغة وتخضع له ، ولا يغير شيئاً من أصول الكلمات فيها

على أن هذا التخفيف كثير شائع مطرد فى كثير من القراءات التى ترجع إلى أهل الحجاز لما فى طبيعة نطقهم وميلهم اللغوى ، وهاك ما يقوله ابن الجزرى فى كتابه : « النشر فى القراءات العشر » : « ولما كان الهمز أثقل الحروف نطقا وأبعدها مخرجا ، تنوع العرب فى تخفيفه بأنواع التخفيف كالنقل والبدل وبين بين والادغام وغير ذلك ، وكانت قريش وأهل الحجاز أكثرهم له تخفيفاً ، ولذلك أكثر ما يرد تخفيفه من طرقهم كابن كثير من رواية ابن فليح ، وكنافع من رواية ورش وغيره ، وكأبى جعفر من أكثر رواياته ، وكابن محيصن قارئ أهل مكة مع ابن كثير وبعده ، وكأبى عمرو فأن مادة قراءته من أهل الحجاز »

وهذا صريح جلى فى بيان قول الزجاج وصحة مذهبه ، وأن اسماعيل بن قسطنطين قد غاب عنه النحى العربى اللغوى فى مثل هذا ، فذهب يلتمس التعليل المنطقى ويقول : « لو كان من قرأت كان كل ما قرىء قرآناً » كما غاب عنه أيضاً أن الاصطلاح من طبيعته أن يحدّ من مدلول الكلمة المصطلح عليها

وذهب آخرون إلى تلمس اشتقاق لها فى مادة « قرن » باعتبار أن الكلمة على أصلها لم تعان شيئاً من الابدال والاعلال : فقال قوم إنها مشتقة من قرنت الشىء بالشىء إذا ضممت أحدهما إلى الآخر ، وسمى به لقران السور والآيات والحروف فيه ، ونسب إلى الفراء القول بأنها مشتقة من القرائن لأن الآيات يصدق بعضها بعضاً ويشابهه

هذا مجمل الآراء فى تعليل كلمة قُران بغير همز . أما القراءة الأخرى المهموزة فاختلف كذلك فى اشتقاقها على قولين أو ثلاثة فابن جرير الطبرى يروى رأيين فى هذا ، أحدهما عن ابن عباس ، والآخر عن قتادة ، أما الأول فيذهب إلى أن القرآن مصدر من قول القائل : « قرأت » كقولك الخسران من خسرت والغفران من غفر الله لك ، والكفران من كفرتك ، والفرقان من فرق الله بين الحق والباطل — ولم يتعرض الطبرى لرواية قراءة ابن عباس لها ، وإن كان مساق القول فى المهموزة ، لكن ذلك لا يعتبر نصا ؛ وإنما تعرض لاشتقاقها . وقد رأينا من كلام

(١) ويلقب فى كتب طبقات القراء بالقسط ، كأنه تعريب اسمه

اسماعيل بن قسطنطين أن سند قراءاته يتصل بابن عباس ؛ فكان ابن عباس كان يقرؤها مخففة ، ويعلم أنها مخففة عن تحقيق ، كما رأى ذلك الزجّاج فيما سبق بيانه[1]

أما رأى قتادة فهو أنها مصدر من قول القائل : « قرأت الشيء » إذا جمعته وضممت بعضه إلى بعض ، كقولك ما قرأت هذه الناقة سلى قط ، أى لم تضمم رحما على ولد قط . كقول عمرو بن كلثوم :

ذراعى عيطل أدماء بكر هجان اللون لم تقرأ جنينا

أما الرأى الثالث فيرويه السيوطى فى كتاب الاتقان عن الزجاج . فهو يرى أنه مشتق من القرء بمعنى الجمع . ثم هو لا يعتبره مصدراً — كما يروى عن ابن عباس وقتادة — وقد سمى به الكتاب المقروء ، وإنما يعده وصفاً على فُعلان

وقد وقف الطبرى بين رأيى ابن عباس وقتادة ، ثم أخذ يرجح الأول على الثانى بأنه يتمشى مع تأويل قوله تعالى : « إن علينا جمعه وقرآنه ؛ فاذا قرأناه فاتبع قرآنه » على الأصل الثابت المقرر فى الدين ، إذ لو كان القرآن هنا بمعنى الجمع والتأليف لما لزم الرسول صلى الله عليه وسلم فرض « اقرأ باسم ربك » ولا فرض « يأيها المزمل » ولا غيرهما من آى القرآن الكريم قبل أن يؤلف إلى ذلك غيره من القرآن

وهذا توجيه وجيه استطاع ابن جرير أن يملك به على خصمه الحجة فى أسلوب منطق حاسم

ونحن إذا أجزنا لأنفسنا أن ندخل فى هذا النزاع ، وندلى برأينا فيه ، اتخذنا لأنفسنا مسلكا غير ذلك المسلك ؛ فقد نستطيع أن ننظر إلى المسألة من ناحية فنية محضة ، نلتمسها فى القرآن نفسه ؛ وحينئذ نلاحظ أن كلمتى القرآن والقراءة تزدوجان فى كثير من آى الكتاب الكريم ، فأولى أن تكون كلمة « القرآن » مشتقة من القراءة لا من القرء ، قال تعالى :

« وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً مستورا » . « فاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم » . « إن علينا جمعه وقرآنه » « فاذا قرأناه فاتبع قرآنه » « وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا » « فاذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون »

وقد تقترن بكلمة القرآن كلمة التلاوة فى نحو قوله تعالى :

« وما تكون فى شأن وما تتلو منه من قرآن » . « وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدله »

إلى غير ذلك من الآيات الكريمة التى تشير إلى أصل كلمة قرآن إشارة نحسبها كافية فى مثل هذا المجال

ثم إن تسمية القرآن بالذكر وبالكتاب تشير إشارة ما إلى هذا الأصل أيضاً ، وحسبنا هذا

فاذا انتقلنا من مادة قرآن إلى صيغتها رأينا المتقدمين يختلفون فيها : هل هى مصدر أو وصف على فُعلان . وأيا كان الوجه فلا شك أنها قد تركت المصدرية أو الوصفية وتمحضت للاسمية المحدودة ، علما على ذلك الكتاب المقدس

ولكن بعض المستشرقين مثل شفللى Schwally وفلهوزن Wellhausen يعارض فى عربية كلمة « قرآن » ، ويرى فيها كلمة « قريانى » السريانية ، وهى بمعنى القراءة أو المقرء ، ويقوى هذا الفرض لديهم مقاربة الكلمة السريانية للكلمة العربية فى الصيغة ولكن هذه المقاربة أو المشابهة لا قيمة لها ، لأن فى العربية كثيراً من المصادر على وزن فُعلان مثل رجحان ونقصان وغفران وكفران وخسران وغير ذلك مما هو عربى صريح مادة وصيغة ، فأى شىء يلجئنا إلى مثل هذا الفرض ؛ ألأن السريانية لغة الانجيل ... ؟

قد لا نمنع أن يكون الكتاب الكريم قد استحدث كلمة « قرآن » استحداثا ، وليس هذا الاستحداث بالأمر الغريب فى اللغة . بل ربما لم نجد بدا من فرض ابتداع القرآن الكريم لهذه الكلمة ، ما دامت نصوص اللغة الجاهلية الصريحة النسبة الى ما قبل الاسلام قليلة نزرة لا تمدنا بالدلائل العلمية الكافية القاطعة . ولكن إذا كان كتاب الله قد استحدثها فذلك من أصل عربى وعلى نحو عربى . وقد لا يكون ذلك النحو شائعاً فى اللغة كثير السريان فيها كغيره من الصيغ ، ولكنه فى حقيقة الأمر موسيقى مرنان ليس أجدر منه أن يكون اسما وعنوانا لذلك

(١) غير أن الزجاج يخالف ابن عباس فى المصدر المشتقة منه كلمة قرآن كما ستعرف

الكتاب الخالد . وقد قصد الى تقرير ذلك الاسم فى الأذهان إذا كان ذلك من الأمور الخطيرة فى الدعوة ، ولذلك كرره أكثر من ستين مرة على أساليب متنوعة ، وفى مواضع مختلفة ، ومناسبات شتى

لقد كان أساس الدعوة الى الدين الجديد هو القرآن ، ولاسيما فى العهد المكى ، فلا جرم كان تقرير اسمه أمراً جديراً بالعناية فكان كثير التكرار كما قلنا ، وهذه الكثرة واضحة وضوحا تاما فى العهد المكى ، دون المدنى الذى لا نكاد نقرأ فيه كلمة (القرآن) فى أكثر من خمسة مواضع ، وقد كان المقتضى لذكرها فى بعض هذه المواضع مجرد السياق الذى لابد منه كما فى آية سورة التوبة : « . . . وعداً عليه حقاً فى التوراة والانجيل والقرآن » أو سبب النزول كما فى آية سورة المائدة : « يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم ، وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم » — على حين نرى فى إحدى السور المكية الظاهر فيها أسلوب الدعوة الحارة المفتنة ، والجدل القوى الغلاب ، وهى سورة الاسراء ، أن كلمة القرآن تكررت فيها نحو ثمان مرات . والفرق بين العهدين ظاهر ، ففى العهد المدنى كان اسم « القرآن » قد ثبت وتقرر وأخذ ذلك المعنى المحدود فلم تعد الحاجة ماسة الى تكراره وإشاعته ، كما فى العهد المكى

إن قول المستشرق فى إنكار كلمة « قرآن » يرجع — فيما أحسب — الى أصلين : أحدهما قولهم فى القرآن إنه يصدر عن أصول أجنبية كالتوراة والانجيل ، فمن هنا لا يرون بأسا فى أن يكون القرآن قد استعار عنوانه من هذه المصادر أو من اللغة التى كتبت بها ، ولاسيما إذا عُزز هذا الأصل الثانى المقرر لديهم وهو عدم ورود كلمة قرآن فى نص جاهلى ، وبعد الذى تقرر من صيغة فعلان صيغة عربية صريحة لا يكون لهم إلا إنكار مادة قرأ بمعنى القراءة فى اللغة العربية الخالصة L'arabe pur ، وقد يكون لهم عذرهم فى هذا ، فأن من العسير حقاً أن نعثر فيما بين يدينا من النصوص الجاهلية على مادة القراءة ، وإنى أقطع بأن هذه المادة لم تجئ فى المعلقات العشر ، وإنما وردت كلمة « تقرأ » فى بيت عمرو بن كلثوم على رواية أبى عبيدة ، ولكن هذا من واد آخر ولكن هبه صحيحاً أن مادة القراءة لم ترد فى نص جاهلى آخر ، فهل يدل هذا دلالة قاطعة على عدم وجود الكلمة فى اللغة ؟ إنما يكون هذا لو أن الأدلة انحصرت فى النص وحده ، وليس النص هو كل شئ ، فالوقوف عنده يؤدى بنا من غير شك إلى الخطأ فى الاستنتاج

لم تكن العرب قبل الاسلام أمة كتلك الأمم التى تعيش فى حالة أولية ، وإنما كانت أمة تجارة تتعامل بتجارتها مع أمتى التاريخ الكبريين : الفرس والروم على معرفة وبصيرة ، وكانت مكة بصفة خاصة مركزاً من المراكز الكبرى لهذه التجارة الواسعة النطاق ، وكانت المظاهر التجارية فيها بارزة فى حياتها بروزاً كبيراً مما دعا الأب لامنس H. Lammens إلى تلقيبها فى كتابه عنها بالجمهورية التجارية . وهذه الحياة التجارية تعتمد إلى حد كبير على الكتابة — ولن تكون كتابة بغير قراءة — فمن الغريب جداً الحكم بأن لغة العرب لا تحتوى على ما يدل على هذا المعنى . وإن النصوص الجاهلية نفسها تدل على أن العرب قد اتخذوا الكتابة ، لا فى الوثائق التجارية فقط ، بل فى عقد المحالفات بين القبائل المختلفة ، وحسبنا ما قاله الحارث بن حلزة فى شأن بكر وتغلب :

واذكروا حلف ذى المجاز وما قدم فيه العهود والكفلاء
حذر الجور والتعدى وهل ينقض ما فى المهارق الأهواء(١)

ونحن نعرف فى السيرة مظهراً من مظاهر هذه العهود فى « عهد الحديبية » وكان مندوب قريش فى كتابته عمرو بن سهيل ، وهو يقدم إلينا سورة من صور الحصافة والدقة فى كتابة العهود والاتفاقات ، فلم تكن قريش حديثة عهد بمثل هذا

وانظر هذه الصورة التى يقدمها لبيد فى معلقته :

وجلا السيول عن الطلول كأنها زُبُر تجد متونها أقلامُها

ومثل هذه الصورة شائع فى الشعر الجاهلى الذى بين أيدينا ، وكلها تثبت أن العرب لم يكونوا غرباء عن الكتابة والقراءة وإذن فافتراض أن القرآن استعار مادة القراءة من بعض اللغات السامية الأخرى لعدم العثور على هذه المادة فى النصوص الجاهلية التى بين أيدينا افتراض فيه شئ كثير من المجازفة

محمد طه الحاجرى

(١) قال الجاحظ فى الحيوان : « ولايقال للكتب مهارق حتى تكون كتب دين أو كتب عهود وميثاق وأمان »